جامعة تكريت
كلية التربية للبنات
قسم التاريخ

المرحلة : الثانية

المادة : تاريخ البلاد العربية في العهد العثماني

عنوان المحاضرة : السيطرة العثمانية على الشام ومصر والحجاز واليمن

اسم التدريسي : م . وجدي حسين علي

الايميل الجامعي للتدريسي : wajdyhussein١٩٧١@tu.edu.iq

السيطرة العثمانية على الشام ومصر والحجاز واليمن

المماليك في معركة ديوا أوائل سنة ١٥٠٩ انهم القوة الوحيدة القادرة على انقاذ العالم الاسلامي ، واعتقدوا ان وضع دمشق والقاهرة ومكة والمدينة تحت سيطرتهم يتيح لهم امكانات اقتصادية وستراتيجية ومعنوية الاحد لها وقد منحتهم الانتصارات التي احرزوها ضد ايران والقوى الأوربية ثقة عالية بانفسهم لقد اتجه العثمانيون بعد انتصارهم على الدولة الفارسية في موقعة جالديران سنة ١٥١٤ للتوسع على حساب دولة المماليك في بلاد الشام ودخلت اور العلاقات المملوكية العثمانية مرحلة سلبية وصلت الى حد الحرب بين - الدولتين .

اما السبب المباشر للاحتلال العثماني لبلاد الشام فكان تهديد الدولة - العثمانية لحدود الدولة المملوكية وذلك عندما هاجمت امارة ذو القدر ، هي امارة تركمانية صغيرة تقع في الجنوب الشرقي من الاناضول على الحدود الشامية وعاصمتها مرعش وقد تأسست في منتصف القرن الرابع عشر وكان اميرها متحالفا مع المماليك معترفا بتبعيتهم لهم ، وضمتها اليها بحجة عرقلتها سير جيوشها اثناء تقدمها لمحاربة الايرانيين متعاونة في ذلك مع دولة المماليك نفسها وهكذا قامت الحرب بين الدولتين ، وجرت معركتها الحاسمة على ارض سوريا في سهل مرج دابق) في ٢٤ آب سنة ١٥١٦ بالقرب من مدينة حلب . وكان السلطان سليم الأول يقود الجيش العثماني . اما الجيش المملوكي فكان بقيادة السلطان قانصوه الغوري (١٥٠٠ - ١٥١٧) ووضح منذ اللحظة الأولى للمعركة أنه ليس ثمة تكافؤ بين الطرفين وخاصة في مجال التنظيم وادارة الحرب ونوعية الاسلحة المعتمدة. فالجيش المملوكي المرتكز على نظام الفروسية لم يستطيع مقاومة القوات العثمانية بتنظيمها المتقن واستعمالها المدفعية واساليب القتال الحديثة .

كما كان لخيانة قائدين مملوكين للسلطان الغوري وهما خاير بيك نائب حلب وجان بردى الغزالي نائب دمشق وتبادلهما الرسائل سرا مع السلطان سليم أثر كبير في هزيمة المماليك ومقتل السلطان الغوري وانسحاب بقية القوات المملوكية المنهزمة الى مصر وعلى حد تعبير ابن زنبل وهو مؤرخ معاصر فانهم تركوا أثقالهم واموالهم واختاروا سلامة الروح دخل السلطان سليم مدينة حلب في ٢٨ آب ١٥١٦ . وقد قرئت الخطبة في مسجد الملك الظاهر باسمه ووصفه الخطيب بانه مالك الحرمين الشريفين فنهض من مكانه وقال بل انا خادم الحرمين الشريفين . وقد بقي في حلب قرابة ثمانية عشر يوما نظم فيها امور المدينة وما حولها كملاطية وبهنسي وعينتاب . ثم توجه نحو دمشق فوصلها في ٢٧ أيلول وظل فيها ما يقارب شهور . وقد ابقى السلطان سليم النظام الاداري في الشام على ما كان عليه أيام المماليك . اذ وجد بلاد الشام مقسمة الى ست مقاطعات تعرف كل واحدة منها باسم (نيابة) وهي نيابات حلب ، ودمشق ، وحماة ، وطرابلس وصفد والكرك . وقد عين عليها بكوات من الاتراك العثمانيين الذين يثق بهم . الا انه أجرى تعديلا لهذا الوضع قبل عودته الى العاصمة وذلك بان رفع من شأن بعض المدن وحولها الى مراكز ادارية رئيسة متخذا الوحدة الإدارية العثمانية وهي السنجق (اللواء) اساسا للتقسيم بدلا من (النيابة) ، كما عين جان بردى الغزالي واليا على دمشق ومد نفوذه على القسم الجنوبي من سوريا وحتى العريش .

وكأنه بذلك قسم بلاد الشام الى قطاعين كبيرين احدهما شمالي دمشق ويشرف عليه حاكم حلب وثانيهما جنوبها ويشرف عليه حاكم دمشق . وقد شمل التنظيم الاداري للسلطان سليم كذلك المدن الصغرى والقرى الكبيرة فعين على كل واحدة منها صوبا شيا يمثل السلطة العسكرية ويحفظ الامن والنظام .

وكما اهتم السلطان بتركيز السلطة الادارية العسكرية فأنه اظهر عناية كبيرة في تنظيم الخدمة القضائية . وابقى على نظام الحسبة واوصى المحتسبين والبكوات والصوباشية بتنفيذ احكام القضاة وقراراتهم . ثم عين في كل منجق مسؤولا عن تنظيم امر المالية دفتر دار هذا وقد وزع السلطان سليم الحاميات التركية على السناجق وسعى لتثبيت هذه الحاميات بربطها بارض البلاد عن طريق اقطاع الخيالة (السباهيين) تلك الأرض وشدهم اليها. لكنه لم يحاول ادخال انماط التنظيم الاداري العثماني بكل تفاصيله في منطقتين جبليتين من مناطق بلاد الشام أحدهما ، المنطقة الشمالية وتضم ملاطية وبهنسي وعنيتاب وقلعة الروم وتسكنها قبائل تركية وتركمانية لها عاداتها الخاصة وتنظيمها العشائري الذي ينسجم مع طبيعة المنطقة الجبلية . وثانيهما منطقة جبل لبنان التي كان لها كذلك امراؤها الاقطاعيون من المارونيين والدروز . وكانوا يعيشون أيام الحكم المملوكي متنافسين متناحرين ، ويتمتعون باوضاع شبه استقلالية ساعدتهم على دعمها مناطقهم الجبلية الوعرة . لذلك رأى السلطان سليم ضرورة ابقاء المنطقتين بايدي رؤسائها الوارثين يحكمونها وفقا لعاداتهم الخاصة ويرتبطون بالسلطان العثماني بروابط التبعية ، ويقدمون له ما عليهم من خراج الارض .

وساعده على ذلك ان كثيرا منهم قد وفد اليه مقدما فروض الطاعة والولاء بعد انتصاره في معركة مرج دابق ولعل ابرز الذين وفدوا عليه فخر الدين المعنى الذي اعترف السلطان به أميرا على جبل لبنان بينما كان السلطان العثماني سليم الأول يدعم سيطرته على الشام اجتمع في القاهرة قادة المماليك العائدون من القتال ، وانتخبوا نائب السلطان الغوري (طومان باي) سلطانا جديدا عليهم . وقد كان على طومان باي توحيد صفوف المماليك ، واعادة بناء الجيش المملوكي بعد هزيمة مرج دابق وسقوط الشام بما يكفل الصمود في وجه الجيش العثماني ومما زاد في صعوبة هذه المهمة ان الوقت لم يعد كافيا للقيام بهذه المهمة على الوجه الأكمل ، بعد ان قرر السلطان سليم مواصلة زحفه نحو مصر واسقاط دولة المماليك اعتقد السلطان سليم ان معركة مرج دابق ستؤدي الى انهيار دولة المماليك وسقوطها نهائيا في قبضته لذلك عرض على طومان باي السلطان المملوكي الجديد الاعتراف بالخضوع للسيطرة العثمانية في مقابل الاحتفاظ منصب حاكم مصر وكن طومان باي رفض ذلك واصر على المقاومة ويبدو ان هناك سببين مهمين لذلك أولهما ان طومان باي كان يعتقد ان السلطان سليم لم يكن جادا فيما عرضه من مقترحات ، اذ ان رسالته التي بعث بها تنطوي على تهديد مباشر ، فسليم يعلم يقينا ان قاعدة المماليك الاساسية هي مصر وليس الشام ، ولو أنه عاد الى استانبول بدون غزو مصر ، فمن المؤكد ان المماليك سيحاولون تجميع قواهم والتحول من موقف الدفاع الى الهجوم على العثمانيين لاستعادة الشام.

اما السبب الثاني فيكمن في ضغط الأمراء المماليك على طومان باي خشبة ان يثبت مركزه كسلطان في مصر اتجه السلطان سليم نحو جنوب سوريا واحتل فلسطين ثم اجتاز صحراء سيناء ووصل الى شواطيء النيل مطلع سنة ١٥١٧م . وقد سهلت الامطار الغزيرة التي هطلت تلك السنة على الجيش العثماني عملياته العسكرية حاول المماليك بقيادة طومان باي تجميع قواهم واقاموا خطأ دفاعيا عند الصالحية لعرقلة الزحف العثماني . غير ان العثمانيين بعد استيلائهم على غزة تجنبوا هذا الخط الدفاعي وانحرفوا نحو الجنوب ، ودخلو الدلتا حتى بلبيس . وفي مشارف القاهرة عند (الريدانية حدثت المعركة الحاسمة الثانية في حياة الدولة المملوكية في ٢٣ كانون الثاني سنة ١٥١٧م . وانتهت بهزيمة المماليك ودخول العثمانيين مدينة القاهرة في اليوم السادس والعشرين من الشهر نفسه وبذلك هوت الدولة المملوكية التي امتدت حكمها من سنة ١٢٥٠م وحتى سنة ١٥١٧م.

انسحبت طومان باي الى منطقة الجيزة ، وحاول تنظيم حركة المقاومة هناك ولكن القوات العثمانية تعقبته حتى فر الى الدلتا ليقع في قبضة العثمانيين وعند مديرية البحيرة تم اعدامه في ١٧ نيسان سنة ١٥١٧ بعد ان استقبله السلطان سليم استقبالا طيبا وحادثه محادثة طويلة في شؤون مصر وادارتها واعجب بشجاعته وذكائه ويقال ان سليم اراد الابقاء على حياته لولا الحاح خابربيك على اعدامه بحجة ان هناك مؤمرة يقصد بها انقاذه من الاسر بقي السلطان سليم في مصر بضعة شهور بدرس احوالها مع مستشاره المؤرخ الكردي ادريس البدليسي صاحب كتاب الشرفنامة ، ويقال ان البدليسي نصحه بان لا يثقل كاهل المصريين بالضرائب . كما التقى السلطان سليم مع مندوبي البندقية وعقد معهم معاهدة منحتهم امتيازات تجارية في مصر على غرار الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في عهد المماليك وقد اتخذت هذه المعاهدة فيما بعد اساسا لمعاهدات الدولة العثمانية مع الدول الأوربية الأخرى فيما يتعلق بالامتيازات التجارية.

قام السلطان سليم بتقسيم مصر إلى اربع وعشرين مديرية . واصدر قرارا اثناء اقامته منها بتعيين يونس باشا اول وال عليها ، الا انه قبيل رحيله اصدر قرارا ثانيا بعزله وتعيين خاير بيك محله وقد ظل هذا محتفظا بمنصبه حتى موته سنة ١٥٢٢م . وقد اصدر الوالي خابر بيك بأمر من السلطان سليم قرارا بالعفو الشامل عن المماليك وتوزيع الرواتب عليهم وتولية بعضهم مناصب ادارية مهمة وذلك لخبرتهم الطويلة ودرايتهم باحوال البلاد . ولم تكن هذه السياسة جديدة على السلطان سليم فقد سبق له الاعتماد على العصبيات المحلية في الشام بعد ان ضمن خضوع زعمائها وولاءهم للسيادة العثمانية . فعلى سبيل المثال اسند شؤون الإدارة المحلية في جبل لبنان - كما اشرنا سابقا - إلى الأمير فخر الدين المعني امير الشوف ، والامير عساف التركماني حاكم كسروان والامير منصور الشهابي حاكم وادي التيم بعد ان انضموا إلى صفوف العثمانيين في اعقاب هزيمة المماليك في موقعة مرج دابق وكانت وجهة نظر السلطان سليم في ذلك مبنية على اساس الاستفادة من هذه العصبيات المحلية في بعض الولايات البعيدة مثل مصر وجعلها عنصر موازنة بين الوالي وقائد الحامية العسكرية . ومنعا لحدوث اي استئثار بالسلطة او حصرها في يد واحدة قد تجد في بعد مصر عن استانبول ما يشجعها على اعلان الاستقلال عن الدولة العثمانية .

وعلى هذا الاساس وافق السلطان سليم اثناء اقامته بمصر على تعيين اربعين من امراء المماليك واسند اليهم بعض المناصب الادارية كما دخل

بعضهم في عضوية ديوان الباشا (ديوان محروسة (مصر) وهو مجلس اداري يرأسه الوالي وقد تشكل في مصر في اعقاب الغزو العثماني في رؤساء الحامية العسكرية ومن الكتخدار (نائب الوالي والدفتر دار المسؤول عن الأمور المالية واامير الحج . وكانت مهمة الديوان في بداية الأمر تنحصر في معاونة الوالي في شؤون الادارة والحكم ، ثم تطورت بعد ذلك واصبحت تشمل منع الوالي من اساءة استعمال سلطته عندما سقطت دولة المماليك في يد العثمانيين كان من الطبيعي ان يتبع ذلك سقوط الحجاز ، وذلك لان المماليك كانوا اصحاب السيادة عليه. وقد اعلن زين الدين بركات شريف مكة (١٤٩٧ - ١٥٢٥م) ولاءه للسلطان العثماني بعد ان وصله فرمان منح الامان . وقد ارسل الشريف بركات وفده إلى القاهرة برئاسة ابنه الكبير ابو نمي» ليقدم فروض الولاء في ٣ تموز ١٥١٧م ويلقى بين يدي السلطان سليم بمفاتيح الكعبة وبعض الآثار النبوية الشريفة إقرارا له بالسيادة على الحجاز .

وقد استقبل السلطان سليم أبي نمي بحفاوة بالغة واعطاه تفويضا بحكم والده واعلن السلطان سليم نفسه خادما للحرمين الشريفين. وقد ساعد هذا التفويض الشريف بركات في تقوية مركزه امام خصومه في الشرافة . وهكذا دخل الحجاز في نطاق السيادة العثمانية دخولا سلميا . وقد احتفظ العثمانيون بنظام الشرافة كما كان عليه ايام المماليك مع انشاء متصرفية في جدة باسم متصرفية الحيش . واوقفت الدولة اوقافا كثيرة على الاماكن المقدسة . و كانت ايراداتها تصب في خزانة مستقلة بالقصر السلطاني تعرف به حرمين دولابي».

اما علاقة العثمانيين باليمن .
المملوكية ودخول السلطان سليم القاهرة الو فقد بدت واضحة بعد سقوط الدولة من فقد ارسل اسكندر الجركسي حاكم اليمن المملوكي وفدا ليقدم فروض الولاء للسلطان العثماني الذي - الا ان الصراعات الداخلية بين القادة المماليك وافق على ابقائه في منصبه انفسهم من جهة وازدياد نفوذ الامامة الزيدية بين قبائل الجبال من جهة اخرى جعلت السيطرة العثمانية في اليمن ضعيفة . هذا بالاضافة إلى الخطر البرتغالي الذي كان يهدد السواحل اليمنية مباشرة لذلك فقد بعث العثمانيون قوة عسكرية الى اليمن لم تستطع اقرار الأمن والدفاع عن السفن الاسلامية التي كانت تتعرض لمدفعية البرتغاليين وذلك بسبب النزاع الذي نشب بين قائدها حسين الرومي متصرف جدة والريس سلمان احد قادة البحر العثمانيين. ان موقع اليمن إلى الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية له اهمية

كبيرة في اقتناع العثمانيين بان سيطرتم المباشرة عليه تجعلهم يضمنون سلامة الاماكن المقدسة في الحجاز، والتحكم في البحرين الأحمر والعربي وامتلاك موطىء صالح للوثوب على الاسطول البرتغالي في المياه العربية تعد حملة سليمان باشا الارناؤطي سنة ١٥٣٨م اول حملة منظمة إلى اليمن فقد ضمت

(٢٠) الف شخص مع (٧٤) سفينة بحرية . مجهزة بالمدافع . وكان من اهداف الحملة ان يحتل العثمانيون اليمن ويسبقوا البرتغاليين في احتلال عدن ثم غلق مضيق باب المندب في وجه الاساطيل الاجنبية . وفي ١٥٣٩ م بدأ العثمانيون بعمليات توطيد السيطرة مما ادى إلى وقوع الصدام بينهم وبين الأئمة الزيدية . وقد احتل العثمانيون عدن سنة ١٥٣٨م وتعز سنة ١٥٤٥م. كما سقطت صنعاء في قبضتهم سنة ١٥٤٧م. لقد اصبحت اليمن بعد الاحتلال العثماني تضم تسعة الوية (مناجق) عدن . صهلة ، كوكبان ، طويلة ، مأرب ، وهي صنعاء ، مخا ، زيد . ومن ناحية اخرى تحرك سليمان باشا ، باسطوله ليستولي على بعض الموانى.

العربية في حضرموت ومنها الشحر والمكلأ واجتاح ساحل الحبشة وعاد إلى السويس واكتفت الدولة العثمانية في تلك المرحلة باحتلال سواكن ومصوع على الجانب الغربي من البحر الاحمر سنة ١٥٥٧م ولم تستطع الجيشة التدخل ضد العثمانيين انذاك بقوة لإنها كانت تعاني من ظروف الانقسام بين مؤيدي الكنيسة الشرقية ومؤيدي الكنيسة الغربية ، وذلك قبل دخولهما في حرب اهلية طويلة استمرت حتى اوائل القرن السابع عشر . وقد استفاد العثمانيون من هذه الظروف فقاموا بحملات بحرية إلى الخليج العربي بقصد تخليصه من الضغط البرتغالي وقد مهد لهم ذلك ، السيطرة على العراق هذا وقد ظلت اليمن في فترة خضوعها للحكم العثماني الاول (١٥٣٨ - ١٦٣٥) م تتنازعها قوى العثمانيين والائمة الزيدية . فالعثمانيون لم يستطيعوا ان يضمنوا سيطرة حقيقية على البلاد نتيجة الحركات المقاومة التي ستواجههم كما سنرى